

تراثنا العربي القديم

ما يجب لتنظيم إحيائه

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان تراث العربية حتى أوائل القرن الماضي لا يزال مغموراً محجوباً في ظلمات المكتبات والمجموعات الخاصة؛ وكانت المطابع قد ظهرت في أوروبا منذ أواخر القرن الخامس عشر، وطبعت في رومه بعد ذلك بنحو قرن بعض الكتب والوثائق العربية، منها: مختصر كتاب «زهة الشناق» للشريف الأدرسي (سنة ١٥٩٨)؛ وفي القرن السابع عشر طبعت في مدينة لينن التي ما زالت منذ أربعة قرون مركزاً هاماً لنشر الآثار العربية، عدة مراجع عربية تاريخية، منها: «تاريخ المسلمين» لابن العميد (الملكين) (سنة ١٦٢٥)، وكتاب «مجائب المقدور في أخبار نيمور» لابن عربشاه (سنة ١٦٣٦)، وكتاب مختصر تاريخ الدول لابن العبري (سنة ١٦٦٣)، وظهرت هذه الكتب بالعربية لأول مرة مقرونة بتراجم لاتينية كانت منذ ظهورها مستقى خصباً لؤرخي الغرب

ولم يظهر في أوروبا حتى أوائل القرن التاسع عشر من الكتب العربية سوى طائفة قليلة من الكتب قد لا تعدو عشرات؛ وإلى أواخر القرن الثامن عشر لم تكن مصر قد عرفت الطبعة العربية؛ وقد عرفت لأول مرة في سنة ١٧٩٨، حينما وفد نابليون على رأس حملته الفرنسية، وحمل معه مطبعة عربية كاملة استعملت بالقاهرة لطبع البيانات والأوامر التي كانت تصدرها القيادة العليا ويصدرها الديوان الفرنسي لأهل مصر؛ وكان في مقدمة الكتب التي أصدرتها هذه المطبعة كتاب عن محاكمة سليمان الحلبي قاتل الجنرال كليبر يضم خلاصة التحقيقات والاجراءات بالعربية والتركية والفرنسية، وذلك سنة ١٨٠٠ ولما بدأ محمد علي في تنفيذ برنامجه الاصلاحى لم تقف هذه الناحية الهامة من تعضيد الحركة الفكرية والثقافية، فأنشأ في سنة ١٨٢١ مطبعة بولاق الأميرية، وعنى باعدادها وتجهيزها عناية عظيمة، فكانت أول وأعظم مسرح للطباعة العربية

المتخاذلين على الصلابة والتماسك، والنار التي تندلع في الأحشاء على الخمود... كلاليس هذا بالهين... ولكنى رضت نفسى على القدرة عليه، فلأرأى الحكم لاشمورى وعواطفى؛ وعسير جداً أن يبدو على وجهى شيء مما يضطرب به جنائى ويحيش به صدرى؛ وإن جوفى ليكون كالبركان الفائر أو البحر الهائج، وتنظر إلى وجهى وتسمع كلامى وتتأمل حركاتى وإشاراتى فلا يخالجك شك فى أنى أفرغ الناس قلباً وأخلام بالاً، ولم لا؟... إن ما يدور فى نفسى شيء يعينى وحدى وليس من حق غيرى أن يحيط به ويطلع عليه فإنه سرى؛ ولا من الرجولة أن أعرضه على الناس كأنى ألمس المون أو العطف منهم. وماذا يبقى لى مما يسمعى أن أقول إنه «لى وحدى» إذا كنت أبيع الناس ما فى صدرى وأشركهم فى أمرى؟.. ولست أستنقل أو أستسخر شيئاً كقول الشاعر - وأظنه أبا فراس -

فيا حسرتاً! من لى بخل موافق أقول به بشجوى مرة ويقول فان هذا ضعف وجماعة. والقول بالشجو يفضح ولا يجدى؛ وإذا كان فى البث رفيه، فان الانتصار على النفس أجل وأكرم وأكبر متعة أيضاً؛ والبث ثرة تليق بالبرأة ولا تليق بالرجل. وماذا ينفعك أن يعرف صاحبك أنك تحب أو تكره، أو أبك غاضب ساخط أو راض مقتضب؟... ماذا يستطيع أن يصنع لك؟ لا شيء!.. وأجدى من ذلك عليك أن تماج أنت نفسك وأن تردها على مكروهها - إذا احتاج الأمر - وأن تحفظ باعتدال الزواج وهدوء التفكير واستقامة النظر ودقة الوزن وحسن التقدير. ومن كان لا يملك نفسه فأحر به ألا يملك غيره. والحب حرب بينك وبين المرأة، فأحرص على أن يبقى زمامك فى يدك وإلا ركب منك جواداً مسرجاً ملجماً تركضه حيث تشاء هى وحدها. وليس أظنى من المرأة إذا صار فى يدها زمام الرجل

ابراهيم عبد الفادر المازنى

مجموعات الرسائل

من مجموعة السنة الأولى مجلدة ٥٠ قرشاً مسرباً عدا اجرة البريد
من مجموعة السنة الثانية (فى مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا اجرة البريد
من مجموعة السنة الثالثة (فى مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا اجرة البريد
واجرة البريد عن كل مجلد فى الخارج ١٥ قرشاً

تؤدي بذلك خدمات قيمة لأحياء الآداب العربية ولكن هذا النشاط إذا كان يحمى من بعض الوجوه ، فإنه يشير اليوم كثيراً من وجوه الاعتراض والمؤاخذه ، وإذا كان قد ترك في الماضي حراً طليقاً من كل قيد ، فإن الظروف تقضي اليوم بضبطه وتنظيمه وتوجيهه بطريقة تحقق الغاية منه

بدأ هذا النشاط في أواخر القرن الماضي ، والحركة الأدبية والثقافية في مستهل نهضتها ، فكان هذا النشاط في بيث الكتب العربية وإحيائها بالنشر والتداول من عوامل تمضيدها وتقديتها ، ولم يكن من المستحسن يومئذ أن يمرض هذا النشاط لشيء من القيود التي يمكن أن تؤثر في سيره ونمائه ، وذلك رغم ما كان يمتوره من أوجه النقص سواء في اختيار الكتب التي يراد نشرها ، أو في الصور المزرية التي كانت تنشر بها : ورق أصفر ردى ، وطباعة حقيرة ، وأخطاء علمية ومطبعية لا حصر لها

أما الآن فقد تغيرت الظروف تغيراً واضحاً ، وازدهرت الحركة الفكرية ازدهاراً عظيماً ، وظفرت مصر بطائفة كبيرة من الماهدين والنشآت العلمية الراقية ، وغصت بالشباب المتعلم ، وأضحى مما لا يلائم ذوق العصر وأحواله ، بل مما يضر بسير الحركة الفكرية ذاتها ، أن يترك أمر نشر تراثنا العربي القديم فوضى دون ضابط ودون إشراف

فهناك موسوعات وآثار قيمة سبق نشرها في طبعات جيدة وأضحت نادرة لعدم عهدتها ، وهناك بدار الكتب المصرية مئات الآثار المخطوطة التي لم تنشر من قبل ؛ وهذه جميعاً يقوم على نسخها ونشرها جماعة من الناشرين المحترفين الماطلين من كل مؤهلات علمية أو أدبية ، والذين لا هم لهم سوى الكسب الوفير ، فيخرجونها في نفس الأثواب والصور المزرية التي ألقناها منذ القرن الماضي ، ويتقاضون فيها أثماناً فاحشة لا مبرر لها ، منتهزين فرصة ندرتها إن كانت مما نشر ، أو ظهورها لأول مرة إن كانت مما لم ينشر من قبل

وقد اتسع نطاق هذه الحركة في العهد الأخير اتساعاً واضحاً ؛ وألني الناثرون المحترفون فيها سوقاً رابحة ؛ فكثرت هجيم على الآثار النفيسة مخطوطة وغير مخطوطة ؛ وأخذوا ينشرونها في استهتار وجرأة ، ممسوخة مشوهة ، مشحونة بالأخطاء الشائنة

في الشرق ؛ ولم تقتصر مطبعة بولاق على إخراج الجريدة الرسمية (الوقائع) التي أنشئت بعد ذلك بيضمة أعوام ، وإخراج الوثائق والنشورات الرسمية ، بل أعدت منذ إنشائها لإخراج الكتب العربية ، فطبعت فيها لأول عهدتها عدة من الكتب التي ترجمها بعض أعضاء البعثات العلمية في مختلف العلوم والفنون التي درسوها ، فكانت باكرة أعمالها في نشر الكتب العربية

على أن مطبعة بولاق لم تقف عند هذا الحد المتواضع في إخراج الكتب العربية ؛ وكانت المطابع العربية الأوربية ، ولا سيما في ليدن وباريس ، قد نشطت منذ أوائل القرن التاسع عشر لإخراج طائفة كبيرة من الآثار العربية النفيسة على يد جماعة من أعلام المستشرقين ، فأجهت الأنظار في مصر إلى العناية بهذه المهمة ؛ ونشطت مطبعة بولاق إلى إحياء التراث الإسلامي بهمة فائقة ؛ وعكفت طوال القرن التاسع عشر على نشر الموسوعات والآثار العربية الجليلة ، وأسدت في ذلك أعظم الخدمات للآداب العربية والثقافة الإسلامية ؛ ونظرة واحدة إلى ثبت الآثار الحافلة التي أصدرتها مطبعة بولاق تدل على فداحة المهمة التي اضطلعت بها ، وإلى مدى التوفيق الباهر الذي حققته في إنجازها

وإلى جانب مطبعة بولاق ، قامت مطابع أهلية كثيرة ، ونشطت أيضاً إلى إخراج الكتب العربية ؛ وقد كان ميداناً جديداً يفرى بالكسب ، فأقبل الكثيرون على استثماره ؛ وأخرجت هذه المطابع الأهلية ، إلى جانب بولاق ، مئات من الكتب والآثار العربية الضخمة في كل أنواع العلوم والفنون ، وأعدت طبع كثير مما نشرته بولاق في طبعات رخيصة سهل اقتناؤها ، وساهمت بذلك مساهمة قيمة في إحياء الآداب العربية ونشرها

وهذا ما يزيد أن نمرض إليه في هذا المقال ؛ فقد انقطعت مطبعة بولاق منذ أوائل هذا القرن عن نشر الآثار العربية القديمة ، وحلت محلها في ذلك دار الكتب المصرية ؛ ولكن دار الكتب تقوم في هذا السبيل بجهود بطيئة جداً ، أما المطابع ودور النشر الأهلية فما زالت على نشاطها القديم في إخراج الموسوعات والآثار العربية ، ومنها كثير لم ينشر من قبل ؛ ومن المحقق أنها ما زالت

المالية والمالية في الناشرين أنفسهم ، فإذا لم تتوفر الضمانات المالية - وهي غالباً غير متوفرة - اشترط أن يقوم بالاشراف على النشر شخص تتوفر فيه مثل هذه الضمانات . ويجب أن تمتد هذه الرقابة حتى صدور الكتاب ، وأن يراعى صدوره في ثوب لائق ، وأن يحدد ثمنه بعد صدوره بنسبة معقولة من تكاليفه ؛ ويصح أن تتولى دار الكتب الاشراف العلمى على الكتاب ذاته لقاء أجر معين ، ويصح لها أن ترفض التصريح بالنسخ والنشر إذا لم تتوفر مثل هذه الضمانات ؛ ويجب على أى حال أن يشمل هذا الاشراف كل أثر مخطوط ينشر في مصر ، سواء استنسخ من دار الكتب ذاتها ، أو من أى مكتبة أخرى عامة أو خاصة ، في الداخل أو الخارج ، لأن الغرض هو الاشراف العلمى على حركة إحياء الآداب العربية في مصر ، ويجب أن يكون هذا الاشراف كاملاً شاملاً

ويمكن من جهة أخرى أن تتعاون الماهد العلمية مع دار الكتب في هذه المهمة ، فتشارك الجامعة المصرية والأزهر في تنظيم هذا الاشراف

هذا ولا بأس أن تفرض الحكومة ضريبة معينة على نسخ الكتب المخطوطة التي لم تنشر من قبل ، وعلى نشرها إذا كان النشر لغاية تجارية ؛ وتقدر هذه الضريبة بحسب حجم الكتاب أو أهميته ؛ ويعنى العلماء من أداؤها في جميع الأحوال ؛ ويرصد دخلها لتوسيع حركة إحياء الآداب العربية التي تقوم بها دار الكتب

إن الحق في نشر آثارنا القديمة ملك للدولة ، وهي الأمانة عليها ؛ وإذا كان مما يرغب فيه دائماً أن يشجع الاقدام على نشر هذه الآثار ، فإن مما يرغب فيه أيضاً ألا يكون هذا النشر بضاعة مبتذلة يستثمرها الجهلاء لغايات تجارية محضة ، وألا يحاط بكل الضمانات المعقولة التي تكفل تحقيقه على الوجه اللائق المرضي

هذه ملاحظات واعتبارات حان الوقت لبحثها ، وقد أصبح من واجب السلطات المختصة أن تنشط لحماية تراثنا الأدبي من تلك الفوضى المثيرة ، وأن تعمل لصونه من ذلك الابتذال الشائن ، وأن تقوم أخيراً على تنظيم نشره ، وتوجيهه بطرق موقرة مستنيرة

محمد عبد الله عثمان

لا يتكلفون في إخراجها سوى الطباعة الرديئة ؛ ثم يبيسونها بأثمان فاحشة ، كأنهم هم الذين ألفوها وأجهدوا أنفسهم في وضعها وكتابتها

ولا ينبغي مالم هذا النشر المشوه لآثارنا القديمة من نتائج سيئة ، فهو خلو من كل ضمان أو غاية علمية أو أدبية ، ولا تحده سوى روح الكسب المجرى ؛ ومن ثم كانت الصور المثيرة للزربة التي تصدر بها أجل آثارنا الأدبية ، والتي كثيراً ما تصد الشباب التلم عن تناولها ؛ وهو من جهة أخرى عامل كبير في إحجام علمائنا وأدبائنا عن الساهمة في هذا المجهود مع رغبة الكثيرين منهم في القيام على نشر بعض الآثار القديمة التي توفرنا على دراستها وتحقيقها ؛ ذلك لأن جهودهم العلمية الغالية ، وحرصهم على نشر هذه الآثار في أبواب مقبولة لائقة ، وما ينفقونه في هذا السبيل من الجهد والمال ؛ كل ذلك يقعد بهم عن مجازاة هذا النشاط التجاري المحض ، العارى عن كل درس وتحقيق

ونحن نعرف ما يتكبده العلماء المستشرقون من الجهود الفادحة في إخراج آثارنا القديمة ، والتوفر على دراستها وتحقيقها والتعليق عليها بدقة تثير الإعجاب ، وإخراجها دائماً في أبواب أنيقة محترمة ولهذا كله نرى أن الوقت قد حان لتعنى السلطات المختصة بالمعمل على مراقبة حركة إحياء الآثار العربية القديمة ، وتوجيهها وتنظيمها تنظيمًا يتفق مع ما لتراثنا القديم من كرامة علمية ، ويلائم في نفس الوقت حاجات العصر وذوقه وروحه . ويلوح لنا أن دار الكتب المصرية ، وهي وريثة بولاق في الاضطلاع بإحياء الآداب العربية ، هي أول سلطة أدبية يمكن أن تضطلع بمثل هذا الاشراف العلمى . ذلك أنها هي مستودع تلك الآثار الجليلة المخطوطة التي ترنو إليها أنظار الناشرين المحترفين من كل صوب ، فيقبلون عليها بالنسخ المحرف ، والنشر المشوه ، لا يتكلفون في ذلك شيئاً ، ولا يصدم قيد أو إشراف ؛ وقد تكون هذه الآثار مما حصلت عليه دار الكتب من الخارج بالتصوير ، وأنفقت في سبيله كثيراً من الجهد والمال

ونحن لا نطلب أن تقوم دار الكتب بمنع النسخ والنشر ؛ ولكننا نطلب إليها فقط أن تقوم بالاشراف عليها إشرافاً فعلياً ، وأن تضع لذلك نظاماً يكفل تحقيقها من وجود بعض الضمانات